الفصل السادس

نماذج أمريكية من اليهود

فبراير ١٩٧٥

هناك متغيرات طرأت على التفكير اليهودى العالمى .. « وتحول ما » لا يمكن أن يخطئه حس المتابع للأحداث !

وقد يكون بمقدور إسرائيل أن تقف فى وجه أمريكا وتقول لها « لا » ما دام الرأى العام اليهودى معها ..

ولكن هل بمقدور إسرائيل أن تغفل الرأى العام اليهودى ، فى أمريكا أو فى غير أمريكا ، عندما يتحول معها إلى لهجة التحذير والنذير؟ ! أليس فى هذا دلائل استشعار لبوادر مستقبل محفوف بالمخاطر ، بدأ يتهددهم جميعاً – كيهود – فيما لو « ركبت رأسها » إسرائيل !

ولا يمكن للمتابع أن يخطئ دلائل التحول الطارئ للتفكير اليهودى ، ولا على اللهجة أو الأسلوب .. ولا نبرة « التواضع » أو التعقل التى بدأت تسود ، ولا موجة التشاؤم التى تطغى .. وتلك النصائح الخالصة المخلصة « منهم فيهم » .. والدعوة إلى قبول الحلول الدولية المعروضة والإنصات إلى نداء الواقع والعقل ! !

ولم يكن ناحوم جولدمان الرجل الذى حنكته تجارب الثمانين عاماً ، يتحدث من فراغ ، عندما واجه الإسرائيليين وهو يترأس اجتماعات الجمعية

العمومية للمؤتمر اليهودى العالمى فى القدس ، فقال لهم هذا الكلام الخطير : (كنا فيما مضى – نحن اليهود – فى كل مكان نؤازركم بالكامل وبالتمام .. وفى كل مجال وبكل سبيل .. ولكن ذلك كان يتم فى جو من التعاطف العالمى . وفى محيط دولى من الاحترام والإعجاب بإسرائيل . وبتجاوب كامل مع سياسات الدول الديمقراطية الكبرى .. ولكن هذا كله طرأ عليه التغيير .. تغييرًا سياسيًّا على المجتمع الدولى بأسره ، باستثناء الولايات المتحدة – ولحسن الحظ – على الأقل حتى الآن) .

ثم ينعى إليهم جولدمان علاقات إسرائيل مع العالم غير اليهودى ، والتى أصبحت تتدهور بسرعة كبيرة « ولو استمر الحال على هذا المنوال ، لما مر وقت طويل إلاّ وواجهنا أزمة تعارض خطير فى الولاء .. ما بين إسرائيل ، وبين الدول التى ننتمى رسميًّا إليها – نحن اليهود – ونعيش فوق أراضيها ! » (هذا الكلام قيل بهذا النص فى مؤتمر عام !) .

وقد ألقى ناحوم جولدمان هذه النبوءات السياسية الخطيرة فى وجه إسرائيل ، وألبسها بدون مواربة ثوب النذير والتحذير .. وأمام جمهور يشمل ضمن مايشمل ، ما لايقل عن ٦٠٠ ممثل من تجمعات يهودية منتشرة بين ٥٠ دولة ، جاءوا جميعًا إلى إسرائيل لحضور اجتماعات هذه الدورة لمؤتمر اليهودية العالمية ، والذى يُعقد لأول مرة – منذ إنشائه فى عام ١٩٣٦ – فى إسرائيل !

وهكذا .. ما زال اليهود يعتبرون أنفسهم عالمًا قائمًا بذاته ، برغم أن جولدمان يقرر أن أحوال اليهود حول العالم قد تقدمت كثيرًا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عما كانت عليه من قبل .. ولم يعد هناك مكان فى العالم يتهددهم .. ولا مجال لتفرقة عنصرية واضطهاد ضدهم .

وتحضرنى الآن وجهة نظر – واقعية وموضوعية – للمعلق الأمريكى ،

اليهودى ، سالزبرجر ، حول التحول « الواقعى » للسياسة الفرنسية حيال الشرق الأوسط ، إن المعلق يقول : إن فرنسا إنما تطبق تماماً نظرية تاليران ، أحد عظماء رجال الدولة الذين أنجبتهم فرنسا فى تاريخها .. وكان تاليران (فى القرن الثامن عشر) يعتبر أن فن السياسة إنما ينحصر أولا فى وضوح الرؤية السياسية ، بحيث تستطيع أن تحدد الأحداث التى لا مفر لك من مواجهتها . ثم لا تبقى فى انتظارها ، حتى تحدث ، أو تفرض عليك ، وإنما تبادر بتعجلها ، وتعمل على الإسراع بوقوعها .. حتى تتمكن من جنى ثمار سياستها فى الوقت المناسب .

وديجول .. حسب هذا القول يكون قد طبق نظرية تاليران بحذافيرها فى موضوع الصراع فى الشرق الأوسط .. بعد أن أدرك بثاقب نظره أن عنصر الوقت فى صالح العرب . وأن مستقبل فرنسا ومصالحها مع هذا الكم البشرى الكثيف .. « إن الدولة ليس لها أصدقاء ، ولا أعداء . وإنما لها مصالح ! » هكذا ردد ديجول ومن بعده بومبيدو .. ثم فاليرى جيسكار ومن هم حوله .. وحول فرنسا ، ولو فيما بعد . وهذا هو منطق كل سياسة واقعية .. ومهما طال بها عهد اللف والدوران .. ولكن « غنم من سبق » على حد نظرية تاليران .. وما يحدث هذا الآن هو أخشى ما يخشاه اليهود !

وخلاصة كل هذا الكلام نقطتان اثنتان :

- أن هناك من التيارات التى تهب حاليًّا لدفع إسرائيل إلى المهادنة والتعقل ما لا قِبَلَ لها على صدّه ولا إغفاله .
- وأن منطق المصالح ، أولاً وأخيراً ، هو الذى يحكم بين الدول ويسود .

نماذج أمريكية من اليهود

مارس ١٩٧٨

من الساحل الشرقى ، وصولا إلى الساحل الغربى ، مروراً ببعض ولايات الجنوب ووسط الغرب عبرنا أمريكا (الأصلية) . وقابلنا الأمريكيين (الحقيقيين) خارج واشنطن ونيويورك ، حيث لا تقابل فيهما سوى رسميين أو دوليين أو « خبراء » فى أى شىء وكل شىء !

ومع ذلك فهى دعوة لم يكن فيها متسع للفرجة ولا إلى ما يألف السياح .. بل لم نتعرف على معالم أمريكا بأكثر من التطلع إلى المبانى الشاهقة التى كانت تصادفنا فى الطريق ! وإنما بدأت رحلتنا وانتهت فيما بين الجدران .. مقابلات لا تنتهى إلا لتبدأ حتى على موائد الغداء والعشاء وما بينهما وما قبلهما ، ويتكرر نفس المشهد ، ونؤدى نفس الدور ، جلوساً على منصة أو مائدة وأمامنا ميكروفون . ولوحة أمام كل منا تقدمه إلى جمهور يتطلع إلينا بفضول !

تجربة من لون فريد . أن تفكر وزارة الخارجية الأمريكية أن تدعو تسعة من الصحفيين العرب يشكلون وفداً موحداً ، ويمثلون سبع دول عربية هامة ، تتفاوت فيها النظم السياسية والتيارات ، وفى هذا التوقيت .. وتنظم لهم لقاءات مباشرة مع فئات عريضة ومتباينة من جماهير الشعب الأمريكى بما فيها — طبعاً — جماعات اليهود الأمريكيين .. ترى هل كان من أهداف هذه الرحلة أيضاً دراسة هذه (التشكيلة) العربية ، وتعايشها معاً فى هذه المرحلة السياسية الهامة ، وكيف تواجه الجمهور معاً .. وكيف تلتقى ؟ وأين تختلف ؟ وأسلوبها فى التعبير ؟ !

والصورة التقليدية للعربى كانت — حتى وقت قريب ، وربما لا تزال أيضاً فى

بعض مجاهل أمريكا – ذلك الشخص البدائى ، المتعصب ، العدوانى ، المتهوس فى عدائه لإسرائيل !

وكم من مجموع الأمريكيين يتيسر له أن يخبر العرب أو يعايشهم ويعرفهم على حقيقتهم ؟ لقد سبق وعبر عن ذلك فيما مضى سناتور فولبرايت عندما عبر عن هذه الصورة التقليدية للعربى بأنها « جهل من الأمريكيين لا يقل عن قسوة ! » .. بل لقد قالها لنا الدكتور كيسنجر صراحة ونحن حوله فى بدء هذه الجولة ، فى مكتبه الحالى بمعهد الدراسات الإستراتيجية لجامعة جورج تاون ..

قال لنا بدون مواربة إن العرب شكلوا دائماً فى مخيلة المواطن الأمريكى العادى « نوعية غريبة أو جنساً مختلفاً » لا ينتمى إليه ولا يعرفه على أحسن الافتراضات .. حتى قام أنور السادات بزيارته التاريخية التى صدمت بقوة مفاجأتها التفكير التقليدى تجاه العرب لدى المواطن الأمريكى العادى . وجعلته يعيد النظر فى تصوره للعربى من جديد .. على الأقل جعلته متحمساً متفتحاً ، وعلى استعداد لأن يستمع باهتمام إلى ما يقول .. والأهم من هذا كله أنه قد حدث على أوسع نطاق ممكن وهو ما كان يستحيل أن يتحقق قبل عمل متواصل وطويل .. المهم أننا قمنا بهذه الرحلة والأرض ممهدة أمامنا على مثل هذا النحو .. الرأى العام فى أمريكا بالفعل مهيأ للاستماع بجدية واهتمام لأول مرة .. وأنا أنقل هذه الحقيقة بلا أى مبالغة ولا نفاق ولا حتى رتوش .. لقد ألهبت مفاجأة السادات خيالهم وحماسهم .. وأثارت بالتالى اهتماماً منقطع النظير ، وعلى كل مستوى وعلى أوسع نطاق . ولم نجد اليهود الأمريكيين أقل حماساً ولا فضولا .. ولكن من فرط الإحساس المركب « بالشكوك » والشخصية اليهودية – بالمناسبة – شديدة التعقيد كثيرة الشكوك ، تجدهم قد تحولوا لدى أى بادرة من بوادر الخلاف فى الرأى (وكثيرًا ما كان يحدث خلال الندوات) فتجدهم قد تحولوا فجأة إلى تحفز وعصبية واندفاع فى كيل الاتهامات .

نماذج أمريكية من اليهود

أكتوبر ١٩٧٨

ربما أكثر ما يدعونى إلى طرق هذا الموضوع هو إلمامى بتعقيد الشخصية اليهودية عموماً ، والإسرائيلية خصوصًا - إلى حدٍّ محير أحيانا .. وقد تدهش كثيرًا عندما تتخذ فى مواجهة ذلك مواقف معينة ثم تفاجأ بشخصية أخرى تماماً ، فيها صدق وحرارة ، أو ربما العكس ، كأن تبدأ معها بداية مفتوحة سهلة ثم تُفاجأ بتغيير مفاجئ ومحير ! ولقد تعاملت مع العقلية اليهودية من خلال رحلة مع عدد محدود من الصحفيين العرب . من شرق أمريكا إلى غربها . وبرغم أن تعاملنا كان يتم غالباً من فوق منصات رسمية نتبادل فيها الحوار والاتهام فإننى أختزن من هذه الرحلة نموذجين لشخصيات تركت فى نفسى انطباعات محيرة . والشخصية الأولى ترتبط فى ذهنى بولاية أوكلاهوما ، وهذه إحدى أغنى الولايات الأمريكية بترولاً ، وفيها ربما أغنى جالية يهودية فى أمريكا كلها بعد نيويورك . ومن عاصمتها (طلسا) اتخذت رحلتنا طابعاً حاداً أكثر مما لمسناه فى أى ولاية أخرى .. وكانت ندوة فى بيت أحد كبار الأطباء الأمريكيين .. دعا إليها أهم أعضاء الجالية اليهودية فى المدينة .. أصحاب شركات بترول ، وأصحاب بنوك واستثمارات ، ولا أشك إلاَّ أن مَن كانوا معنا يومها ليذكرون جيداً تلك الندوة بالتحديد . الأستاذ محمود الشريف صاحب جريدة الدستور الأردنية ، والأستاذ الأتاسى من جريدة البعث السورية ، والأستاذ الشعرانى (البحرين) ، وزميل من السودان الشقيق ، وبمجرد دخولنا شعرنا بجو مشحون بنظرات فاحصة ، وتحيات باردة ، وابتسامات متكلفة ، ولم يخفف من

هذا الحفاوة غير العادية من الطبيب وقرينته ..

وكما هو معتاد . أخذ كلٌ دوره فى الحديث عن الصراع العربى الإسرائيلى كما يراه .. وما إن بدأت مرحلة توجيه الأسئلة حتى وقف شيخ وقور تعدى السبعين . وبدأ بصوت متهدج موجهًا حديثه إلى شخصى بصوت مهتز تخنقه العبرات .. وأخذ يتحدث عن مآسى اليهود ومعاناة إسرائيل من جيرانها (الأشرار) وأخذ يعيد ويكرر فى حديث المآسى بالأسلوب التقليدى الممل ، مع أن الجدال كله كان ينصب على الواقع والتطورات التى حدثت على أثر الزيارة التاريخية إلى القدس .. وكان يرفع إصبع الاتهام من حين لآخر مشيرًا إلى شخصى وكأننى أصبحت أمثل كل البشر الآخرين أو أننى مسئولة عن الاضطهاد الذى عاناه اليهود .. وأخيرا أنهى وصلته الحارة بقوله لماذا لا تتركون تلك الدويلة الصغيرة لتعيش فى سلام ! عندئذ كان من حقى أن أعقب . وقلت له إننى متعاطفة معك تمامًا ، ومع كل تراث المعاناة ومآسى ونكبات اليهود ، وهدأت أسارير الشيخ . ولكننى لست مسئولة عن ذلك . أقصد لا بلادى ولا البلاد العربية الأخرى . . ثم لا تنس يا سيدى أن Lettle Tiny Israel كما تسميها قد نبتت لها أنياب ومخالب وتحتل الآن أراضى ثلاث دول ، وتشنج الرجل مرة أخرى وبنظرة سريعة إلى وجهه وإلى انتفاضة جسمه جعلتنى أخشى أن أصبح مسئولة عن اضطهاد يهودى آخر أو أن توجه إلىّ تهمة أقوال أفضت إلى موت !

لن أطيل عليكم .. عبّر البهو فى نهاية اللقاء . ومدَّ يده إلىّ مُصافِحاً معتذرًا . وقبّلَ وجنتى وقدم إلىّ زوجته . وقالت لى ما معناه اعذرى شيخوخته . وجاء إلى الفندق فى اليوم التالى ليجدد اعتذاره ولم يجدنى فترك لى رسالة ، واتصلت به تليفونيًا فى أول فرصة أتيحت لى .. ولم يكن هذا قبل وصولنا إلى (لوس أنجلوس) وما إن عدت إلى مصر حتى وجدت خطابًا منه .. يقدم إلىّ تعازيه فى جريمة اغتيال

الشهيد يوسف السباعى ، وجريمة اغتيال جنودكم الشجعان .

وقال لا تكونى قاسية على إسرائيل .. لو تبادلتم المواقع لكنتم على حذرهم وشكوكهم ومخاوفهم .

وقال لى إنه كان قد كتب إلى الرئيس السادات . وتلقى منه رداً هو سعيد به كل السعادة .. ووعد بأن يصلى دائماً من أجل السلام حتى يتحقق .

وهذا الشيخ اسمه جوليوس ليفنجستون صاحب إحدى الشركات الكبرى للبترول ، وواحد من أكبر دافعى المعونات إلى إسرائيل منذ نشأتها حتى اليوم .

وقبل أن أنتقل إلى تناول تجاربنا مع جماعات اليهود الأمريكيين بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات كذلك .. أود أولا أن ألقى بعض الضوء على هذه الجماعات .

أولا من المستحيل أن نطلق تعبير اليهود الأمريكيين على جميع اليهود الأمريكيين . هناك حقيقة (واحدة) فقط تجمع بينهم جميعًا وهى القضية التى تلخصت وتجسدت فى واقع اسمه إسرائيل .. أى أن إسرائيل كقضية وجود وبقاء واستمرار هى الحقيقة الوحيدة التى تجمع بينهم جميعاً .. فيما عدا هذا فكل فرقة وفق خلفيتها ومستواها الفكرى وانتمائها الاجتماعى . ونظرتها الإنسانية . وأكثر ما جذب اهتمامى لهذه الحقيقة هو النوعية الجديدة التى صادفتها فى هذه الرحلة مع الزملاء العرب .. مع أننى سبق لى أن قابلت الكثير منهم فى مناسبات سابقة فى واشنطن أو نيويورك ، وأحياناً فى القاهرة ، ولكن كلهم تقريبًا كانوا من نوعية المثقفين الدوليين . أهل فكر وسياسة وفن . أى من الخلاصة التى تجيد فنون التعبير والعرض والتخاطب .. أى خبراء الحياة الذين قدموا خدماتهم دوماً إلى قضية اليهود وإسرائيل : بشكل (عينى) من خلال مواهبهم وإمكانياتهم الذهنية أو الاجتماعية أو السياسية .

أما اليهود الأمريكيون الذين أتيحت لنا مقابلتهم خلال هذه السياحة الجماهيرية

فيما بين ولايات الوسط والجنوب والغرب ، فإنها نوعية تختلف كمثل اختلاف المواطن الأمريكي فى هذه الولايات المتحدة عن المواطن الأمريكى الذى يعيش فى واشنطن أو فى نيويورك ... اليهود الأمريكيون الذين قابلتهم هذه المرة أعتبرهم من فئة المساهمين الحقيقيين بأموالهم وبوجدانهم .. الذين أمدوها – ولا يزالون – بالمعونات وبالهبات .. منهم من تدمع عينه ويتهدج صوته لدى ذكر ما يمس « إسرائيل » ظالمة أو مظلومة ، ودائما هى مظلومة لديهم .. ومنهم أيضاً المندفع فى تعصب فج وكذلك المتحفز ، والمنفعل فى عصبية وانفلات وتحدٍّ . ولقد شكّلوا دائماً نسبة كبيرة بين الحضور فى كل الندوات التى أُعدت لنا ، وحتى من قبل التعارف المباشر الذى كان غالباً ما يعقب تلك الندوات ، كما نتمكن من أن نميز بعضهم بسهولة من بين سائر الحضور . غالباً من نوعية الأسئلة العصبية .. والتعليق المحتد أحيانًا ، والانفعال الصامت الذى تطفح به الوجوه .. كانت هواية نمارسها عندما يكون أحدنا يتحدث ، أن نتصفح تلك الوجوه التى تجلس قبالتنا . وكنا نرمز إليهم فيما بيننا « بأبناء العم » ونتسلى باكتشافهم وتمييزهم ، وكان الواحد منا يميل إلى جاره من الزملاء ليلفت نظره إلى ابن العم ، ذلك الذى يكشر عن أنيابه هناك ، أو بنت العم تلك التى تهمس وتغمز ولا يعجبها الحال ، وكأن أبناء عمومتنا على مايبدو من أكثر الناس حرصاً على الحضور ، بل يشكلون فى بعض الأحوال أغلبية بين الجمهور .

هؤلاء باختصار كانوا أكثر صراحة ووضوحاً فى عرض شخصية اليهودى الأمريكى وطريقة تفكيره .. ولقد شدتنى هذه الشخصية إلى الاهتمام بالتعرف إليها ربما أكثر مما مضى .. فلا شك أن الشخص (المتفانى) فى الإخلاص لفكرة أو لعقيدة أو لقضية ليستحق الدراسة والاهتمام ومحاولة التفهم .